الفصل الخامس عشر

عندمـا وصلنا إلى المطار في أروشـا، ساعدني سويابي في أثناء عبـور الجمارك والجوازات، وتولّى الترجمة عنّـي حين تسبَّب ارتباكي في نسيان اللغة الإنجليزية التي أعرفها. كان ينزل في فندق آخر. لذا، افترقنا بعد أن حصلنا على الحقائب، ثمّ ركبت حافلة المطار المتجهة إلـى الفنـدق. كان الظلام قد حلّ عنـد مغادرتنا، وبـدأت أتساءل عن الأسرار التي ستبوح بها لي هذه البلاد الأجنبية الجديدة في الصباح.

أُقيم المؤتمر في مسكن نغوردوتو ماونتن الواقع على بُعْد ثلاثين كيلومتراً خارج أروشا. ولمّـا خرجت مـن الفندق صباح اليوم اللاحق، ونظرت حولي لأتحقَّـق أكانت تنزانيا تختلف عـن مـالاوي من حيث المظهـر والرائحة أم لا؟ أدركـت أنّ الوضع سيان. فقـد كان الطريق الدولـي مليئاً بالحافلات الصغيـرة المكدَّسة بالركاب، وكانت هنـاك شاحنة ضخمة تنفث الدخـان من مؤخّرتها، وتنحرف كي لا تصدم رجلاً عجوزاً يقود درّاجته الهوائية المتهالكة، كان هنالك أيضاً أطفال يحملون خرقاً، ويبيعون السجائر على قارعة الطريق، في حين مشى طـلاب بزيّهم البرّاق عبر الغبار نحـو المدرسة. أيضاً، رأيت قرويـات يحملن الخضراوات على رؤوسهنّ، ومُزارِعين يعتنون بحقولهم.

ولكـن، خلافاً لما في مالاوي، كانت هنالك أشجار في أروشا، ليس ذلك فحسب. فبعد دقائق معدودة، أشار سائق الحافلة إلى الأفق، قائلاً: **انظروا إلى هناك، إنّه كلمنجارو، أكبر جبل في إفريقية.**

لقد شاهدته هناك ماثِلاً أمامي، وكان يغلب عليه – كما في الكتب تماماً – طبقات من الغيوم البيض التي تغطّي قمّته. لم أكد أُصدِّق كيف يمكن لأناس عاديين مثلي تسلُّق ذلك الجبل العظيم، لكنّني كنت أعرف أنّ ذلك يحدث على الدوام. أعتقد أنّ الدكتور متشازيمي كان محقّاً حينما قال: إنّ هنالك رحلة عظيمة بانتظاري. لذا، بدأت أُنظِّم قائمة في ذهني بأسماء المناطق التي أودّ زيارتها في العالَم.

منحني جبل كلمنجارو دفقة كبيرة من الثقة، وهي ثقة اختفت لحظة وصولي الفندق الذي سيحتضن المؤتمر. فقد كان البهو مليئاً بالأشخاص من مختلف الجنسيات، وكان أكثرهم من البيض القادمين من أوروبا وأمريكا. كان هنالك كثير من الأفارقة أيضاً. ولكن، حتى هؤلاء كانوا يتحدثون بسرعة، وبلكنات غريبة. وكان الجميع يتحدثون بهواتفهم النقّالة، فدعوت ربي ألّا يتحدث أحد منهم إليَّ.

بعد تدوين بياناتي في مركز الاستقبال، مشيت إلى زاوية الغرفة، مُحاوِلاً الاختباء. ولكن، لم يحالفني الحظ في ذلك؛ فبعد دقائق معدودات، اقترب منّي رجل، ثمّ مَدّ يده لي. كان شعره أحمر، ويضع على عينيه نظّارة برّاقة ملوّنة بالأرجواني والأخضر.

قال: **مرحباً، أهلاً بك في مؤتمر تي إي دي. اسمي توم، مَنْ أنت؟**

كنت قد تدرَّبْتُ على سطر واحد باللغة الإنجليزية، فاستخدمته: **أنا ويليام كامكوامبا، أنا من مالاوي.**

حدق إليَّ باستغراب. ربّما تحدثت بلغة التشيتشيوا.

قال: **لحظة واحدة، أنت فتى الطاحونة الهوائية.**

كان توم رايلي مسؤولاً عن الشركات الراعية للمؤتمر، وفي ذلك تلك التي تكفَّلت بنفقات تذكرة الطائرة والفندق. فقبل المؤتمر شهور عدّة، كان إيميكا – المدوّن النيجيري – قد أخبر توم عن طاحونتي الهوائية في أثناء وجوده بمكاتب **تي إي دي** في نيويورك، قائلاً: **لن تصدّق هذه القصة...**، لكنّ توم لم يكن على علم بأنّ إيميكا فتَّش مالاوي طولاً وعرضاً للعثور عليَّ، وجلبي إلى أروشا. وما هي إلّا دقائق معدودة – كافحت في أثنائها لاستخدام الكلمات القليلة

التـي أعرفهـا في اللغـة الإنجليزية – حتـى سألني توم عمّـا إذا كنت أودّ سـرد قصتي على المسرح أمام الحضور كافة.

هززت كتفيَّ، قائلاً: **لِمَ لا؟**

سألني: **هل لديك جهاز حاسوب؟**

هززت رأسي، قائلاً: **لا.**

فسأل: **هل بحوزتك صور للطاحونة الهوائية؟**

كانـت لديَّ صـور حقّاً؛ فقد كان أحـد أصدقاء الدكتور متشازيمي فـي زيارة لماديسي قبلهـا بأسابيع عـدّة، وأخذ يساعدني علـى تحضير عرض في حال احتجـت إلى واحد، وقد تضمّـن العرض صوراً حصل عليهـا من المراسلين الذين زاروا بيتي. لقد فعل ذلك بوساطة حاسـوب شخصـي أخرجه من حقيبته. علمـاً أنّني لم أكـن أعرف كُنْه الحاسـوب وماهيته حينهـا. كانت الحواسيـب التي أعرفها كبيـرة كالتلفاز، وتوصَل بالجـدار. وكان لدينا بعض منهـا في مدرسة ماديسي من عهـد الرئيس باندا، لكنّها كانت معطّلـة. وقبل أن يغادر ذلك الرجل، ناولني مكعباً غريباً (قرص تخزين: يو إس بي) متصلاً بحبل، قائلاً: **ضع هذا حول عنقك. هـذا هـو عرضك. لـذا، عندما سأل توم عـن الصور، فتحـت أزرار قميصي لإخراج الحبل. نظر توم إليَّ بطريقة غريبة، ثمّ أخذ المكعب ووصله بحاسوبه الشخصي، قائلاً: سأنسخ محتواه على حاسوبي.**

عندها أدركت ماهية الحاسـوب الشخصي. فقلت لنفسي: **حقاً، إنّه حاسوب محمول. يا لها من فكرة رائعة!.**

حينمـا رأى تـوم إعجابي بالحاسـوب الشخصي، سأل: **هـل سبق لك استخـدام شبكة الاتصالات العالمية (الإنترنت) يا ويليام؟**

أجبت: **لا.**

حينئذٍ، أجلسني توم في غرفة اجتماعات هادئة، ثمّ وضع حاسوبه أمامي وشرح وسادة المسار، وكيف أنّ أصابعي هي التي تحرِّك السهم الموجود على الشاشة. ثمّ قال: **هذا موقع جوجل، بإمكانك العثور على أيّ إجابة عن طريقه. عمَّ تريد البحث؟**

رددت: **عن الطواحين الهوائية.**

وجدت خمسة ملايين صفحة إجابة في ثانية واحدة، وكانت تحوي صوراً ونماذج لطواحين هوائية لم أكن أتخيّلها. فعلنا الشيء نفسه بخصوص الطاقة الشمسية. ثمّ عرضنا خارطة لمالاوي عن طريق موقع (**جوجل إيرث**)، ثمّ صورة لقرية ويمبي التُقِطت بكاميرا موجودة في الفضاء الخارجي. كان من المضحك أن أكون في ذلك المؤتمر بشرق إفريقية، برفقة بعض أبرز مبدعي العالَم في مجالي العلوم والتقنية، وها أنا ذا أرى الإنترنت أول مرّة في حياتي. لقد كنت حقّاً فُرجة قائمة في حدّ ذاتي.

بعد ذلك، ساعدني توم على إعداد حساب مخصوص بي على البريد الإلكتروني، حتى إنّه بعث إليَّ برسالة من حاسوب آخر للتوضيح. تعرَّفت في اليومين التاليين قطعاً مدهشةً من النقانة (التكنولوجيا)، مثل: البلاك بيري، وكاميرات الفيديو، والكاميرات الرقمية، وحتى الآي بود نانو، حيث قلَّبته بيديَّ مراراً حتى استسلمت وسألت: **أين بطاريته؟** (أصبحت بعد وقت قصير أُفكِّك أجهزة الآي بود وأُصلِحها).

لم يكن أكثر ما أدهشني في مؤتمر **تي إي دي**، الإنترنت، والمعدات، أو حتى موائد (بوفيهات) الإفطار التي كانت تحوي ثلاثة أنواع من اللحم، إضافة إلى البيض، والفطائر (المعجّنات)، والفواكه التي كنت أحلم بها ليلاً؛ إنّما كلّ أولئك الأفارقة الذين كانوا يصعدون إلى المنصة بصورة يومية، ويشاركون قصصهم ورؤيتهم عن كيفية جعل قارتنا مكاناً أفضل لسكّانها.

وفي هذه الأثناء، شاهدت عالِم النباتات الكونغولي كورنيلي إيوانغو، الذي خاطر بحياته لإنقاذ حيوانات مهدَّدة بالانقراض في أثناء الحرب، حتى إنّه قام بدفن محرّكات سيارات لاند روفر، وخبَّأ معدات مخبرية في الأشجار ليحميها من المتمرّدين. وكذلك رجل أثيوبي اخترع نوعاً من الثلاجات التي تعمل بتبخّر الماء الموجود في الرمال؛ كي يتسنّى استخدامها

في القرى التي لا تصلها الكهرباء، إضافة إلى امرأة نيجيرية تُدعى بولا أولابيسي كانت قد أنشأت منظّمة لِلَمِّ شمل المخترعات في أنحاء إفريقية كلّها. وقد ضمّ المؤتمر أيضاً أطباء وعلماء استخدموا أفكاراً وطرائق مبتكرة؛ لمكافحة الإيدز والملاريا والسلّ. كان إيريك هيرسمان هناك أيضاً، وهو أحد أوائل مَنْ كتبوا عن طاحونتي الهوائية – إضافة إلى مايك ماكيه – في مدوَّنته المُسمّاة **إفريغادجت**. لم يكن إيريك عالِم أحياء إفريقيّاً (ترعرع في كينيا والسودان)، لكنّ ما قاله اختصر الأمر من دون نقصان: **يستخدم الأفارقة يوميّاً الأشياء القليلة التي يملكونها لكي يتمكّنوا؛ من البقاء أحياء؛ فهم يُبدعون للتغلّب على التحديات التي تفرضها عليهم ظروف قارّتهم وأحوالها. ففي الوقت الذي يَعُدّ فيه العالَم بعض الأشياء قمامة، ترى إفريقية أنّها من قبيل إعادة التدوير. وما يراه العالَم خردة، تجده إفريقيا فرصة جديدة.**

وعودة على ذي بدء، فقد ساعدني توم على إعداد الكلمات التي سأقولها في أثناء العرض، لكنّها – بطبيعة الحال – تبخّرت من دماغي لحظة دخول القاعة. كان ملفّ العروض التقديمية (البور بوينت) الذي أحضرته طويلاً بعض الشيء. لذا، فبدلاً منه، أعلمني مشرف المؤتمر كريس آندرسون أنّه سيطرح عليَّ أسئلة في أثناء وجودي على المنصة. وما إن سمعْتُ كريس ينادي اسمي حتى تسمَّرَتْ قدماي في المكان. فهمس إليَّ كريس مُربِّتاً كتفي: **لا تقلق. خذ نفساً عميقاً فحسب.**

بدأ قلبي يخفق كطبل مغانـدا وأنا أصعد الدرجات لأواجه الحضور الذي كان تعداده نحو أربع مئة وخمسين شخصاً، منهم المخترعون، والعلماء، والأطباء الذين وقفوا على المنصة نفسها في الأيام السابقة. وها هم الآن يجلسون على مقاعدهم وأنظارهم تتطلّع إليَّ. وما إن صعدت الدرجات والتفتُّ حتى أصابني العمى؛ إذ كانت هنالك أضواء ساطعة في السقف مُسلَّطة على عينيّ، وقد كانت ساطعة لدرجة أنّها منعتني من التفكير. بدا أنّ الكلمات التي أعددتها تتراقص على أنغام الطبل، ثمّ تضيع في خضم هذا الدفق من الوهج.

قال كريس: **لدينا صورة**، ثمّ أشار إلى شيء خلفي، فظهرت على الجدار مباشرة صورة ضخمة لبيتي. رأيت الحيطان المصنوعة من الطوب الطيني، والسقف العشبي، والسماء الزرقاء اللامعة. كنت قادراً حقّاً على الشعور بالشمس.

سأل قائلاً: **أين التُقطت هذه الصورة؟**

أجبت: **في بيتي حيث أسكن.**

سأل: **أين؟ في أيّ بلد؟**

أجبت: **في مالاوي، كاسونغو. قلت لنفسي: لا، هذا خطأ. وصحّحت ما قلته بسرعة: كاسونغو، مالاوي.** وفي هذه اللحظة، بدأت يداي ترتعشان.

أضاف كريس: **كانت لديك فكرة قبل خمس سنوات. حدثنا عنها؟**

أجبت: **أريد أن أبني طاحونة هوائية.** قلت لنفسي: **لقد أخطأت في القواعد مرّة أُخرى.** فابتسم كريس، قائلاً: **ماذا فعلت إذن، كيف نجحت في فعل ذلك؟**

أخذت نفساً عميقاً، ثمّ شددت من أزري، قائلاً: **بعد أن تركت المدرسة، ذهبت إلى المكتبة...، وأحصل على معلومات عن طاحونة هوائية...».** قلت لنفسي: «**تابع، تابع...**». **ثمّ أحاول، ونجحت.**

توقّعت أن ينفجر الحضور ضاحكين على ركاكة لغتي الإنجليزية، لكنّني فوجئت أنّهم بدأوا بالتصفيق، ولم يكتفوا بذلك، بل نهضوا من مقاعدهم مهلّلين. وعندما عدت أخيراً إلى مقعدي، لاحظت أنّ بعضهم أخذ يبكي. بعد كلّ تلك السنوات من المعاناة (المجاعة، والخوف المستمر على عائلتي، وترك المدرسة، وحزن والدي، وموت كهامبا، والمضايقات التي تعرّضت لها في اثناء تنفيذ فكرتي)؛ بعد هذا كلّه، اعتُرِف بإنجازاتي أخيراً. لقد شعرت أول مرّة في حياتي أنّني محاط بأشخاص يفهمون جيداً ما فعلته. بدا أنّ حملاً ثقيلاً انزاح عن صدري، وسقط على أرضية القاعة. أصبحت أخيراً قادراً على الاسترخاء، وبين زملائي الآن.

وعلى مدار اليومين الآتيين، اصطفّ الزملاء لمقابلتي، قائلين:

– هل يمكنني التقاط صورة معك يا ويليام؟

– هلّا انضممت إلينا لتناول طعام الغداء يا ويليام؟

أصبح أحد السطور التي قلتها في أثناء العرض شعاراً للمؤتمر. فكان الجميع يصرخون أينما ذهبت: (**أحاول، ونجحت!**). لقد شعرت حقّاً بإطراء كبير. تمنيت لو أنّ والديّ وغيلبرت وجيفري كانوا موجودين لمشاهدة ما حدث، كانوا حقّاً سيشعرون بفخر كبير.

كان يبدو أنّ شيئاً ما في قصتي حرّك مشاعر توم. فقد أخبرني لاحقاً أنّه حين كان صغيراً اعتاد أن يقضي معظم وقته يتفحّص الأجهزة الإلكترونية، ويحلم بإجراء التجارب. وحين قابلته أول مرّة، سألني عمّا أريد تحقيقه في حياتي. فأخبرته أنّ لديَّ هدفين؛ أولهما: البقاء في المدرسة، والآخر: بناء طاحونة هوائية أكبر لريّ محاصيل عائلتي كي لا نجوع مرّة أُخرى. كانت تلك الأمنية مستحيلة بحسب المعايير المالاوية، فمعظم السكان في بلدي يمضون حياتهم وهم يشاهدون مثل تلك الأحلام تتلاشى أمام أعينهم. ولكن، مع النفوذ والتأثير الفاعليْنِ للأشخاص المشاركين في مؤتمر **تي إي دي** في أروشا، استنتج توم أنّ الرسوم الدراسية والطاحونة الهوائية، هما مطلبان هيِّنان نوعاً ما. فاقترح على الملأ محاولة جمع الأموال اللازمة لتحقيق هذين الهدفين، ولاسيّما أنّني ما زلت ناشئاً في مجال العمل الريادي (لا أملك سوى عرض تقديمي واحد جيد).

قال: **ستكون أنتَ مثل شركة ناشئة في وادي السيليكون، وسأكون أنا بمنزلة مجلس الإدارة خاصتك. لنأخذ هذا العرض، ونريه للناس. سنحصل حتماً على بعض المال.**

لم أكن أعرف أيّ شيء عن وادي السيليكون، لكنّني تركته يساعدني. وفيما تبقّى من أيام المؤتمر، وبوجود عرضي على حاسوبه الشخصي، تحدث توم إلى كثير العديد من المخترعين ورجال الأعمال الأمريكيين، طالباً إليهم تقديم الدعم لمشروعي. وقد فوجئوا بهذا الطلب في أثناء تناولهم طعام العشاء، ثمّ تبعهم إلى فنادقهم بالحافلة، ووقف في طرق إفريقيا الوعرة ليروي قصتي. وافق جميع مَنْ تحدث إليهم – تقريباً – على تقديم المساعدة؛ حتى إنّ بعضهم فتح محفظته وأعطانا مئات الدولارات.

تطوّع جون دوير، وهو أحد أنجح المخاطرين برأس المال في العالَم، بأن يكون أول مستثمر في أعمالي. أمّا آخرون من أمثال جون غيج؛ كبير الخبراء في شركة **سن مايكروسيستمز**، والمخترع جيه ووكر؛ مؤسس موقع (priceline.com)، فوافقوا على

المشاركـة لاحقـاً. إنّني شاكر جدّاً لهـؤلاء الأشخاص اللطيفين، وأدعـو الله أن يبارك فيهم جميعهم.

وبـدل أن يعـود إلـى وطنه بعـد المؤتمـر، استقل تـوم الطائـرة متوجّهاً إلـى مالاوي؛ ليساعدنـي على الانخراط في مدرسة أفضـل، وشراء بعض المواد التي كنت في حاجة إليها لتكبيـر طاحونتـي الهوائيـة. كان أول الأشياء التـي فعلناها في ليلونغوي، هـو شراء هاتفين نقّاليـن؛ واحد لي، والآخر لوالديّ حتى نتواصل في أثنـاء وجودي بعيداً عن البيت. لن أشعر بالوحدة بتلك الطريقة.

ركبنـا سيارة أجرة برفقة الدكتـور متشاويمي، ثمّ اتجهنا إلـى القرية لمقابلة عائلتي. وحيـن التففنا باتجاه الطريـق الترابي المؤدي إلى بيتي، بدت لـي الطاحونة من بعيد بأبهى حُللهـا. كانت شفراتها تدور بسرعة كالعادة، لدرجة جعلت البرج يتمايل إلى الأمام والخلف. وقف توم عند قاعدتها مطوّلاً، مُلتقِطاً الصور، ومُحدِّقاً إلى أعلى، ثمّ قال: **هذا ليس اختراعاً وظيفيّاً فحسب يا ويليام، بل إنّه فن .**

بعـد ذلك، اصطحبته فـي جولة حول البيت، وأريته بطاريـة السيارة واللمبات. ضحك عندمـا رأى الكومة التي تضم أجهزة المذياع، وأجزاء الجرار ملقاة في إحدى زوايا غرفتي، ثمّ قال: **أعتقد أنّ لدى كلّ مخترع عظيم كومة خردة في مكان ما.**

شرحـت له أيضاً عـن المفاتيح الكهربائيـة، وقاطع الدارة، والطريقـة التي جعلت بها اللمبـات الخارجية مقاومة للماء. كان كلّ ما لديَّ لإضـاءة الرواق الخارجي، مصباح سيارة صغيـراً. لـذا، فرّغـت لمبة متوهّجـة عادية، ثـمّ وضعت مصبـاح السيارة داخلهـا ووصلته بالأسلاك. لقد عملت تلك القوقعة بوصفها ناشراً وواقياً من الظروف الجوية.

قال توم: **يبدو أنّ الأمر كان أصعب ممّا اعتقدت.**

ضحكت فحسب؛ إذ لم أكن قد أخبرته بعدُ عن المجاعة.

بالعـودة إلـى ليلونغـوي، فقد زرت أنا وتـوم مكاتب منظّمـة باوباب هيلـث الواقعة في مستشفى كاموزو المركزي لرؤية سويابي ومقابلة مايك ماكيه أخيراً. يُذكَر أنّ منظّمة باوباب

تأسّست عام 2000م، على يد عالِم حاسوب كندي من أصل بريطاني يُدعى جيري دوغلاس. وكان عالِم الحاسوب هذا في الماضي متطوّعاً لدى وزارة الصحة، وقد لاحظ أنّ الطرق المستعملة لجمع المعلومات ما زالت بدائية، وغير فاعلة؛ إذ كانت أسماء المرضى تُدوَّن بقلم رصاص في دفتر كبير يعلوه الغبار، الأمر الذي تعذّر معه غالباً استرجاع السجلات الطبية لغرض الإحصاءات. وكان المرضى ينتظرون أربع ساعات عادة في الطابور لتدوين أسمائهم ومقابلة الطبيب فقط. لم يكن هنالك حلّ سهل لهذه المشكلة، فأبتكر جيري حلّاً بنفسه.

فبعد عودته إلى موطنه في بيتسبيرغ، حيث كان يعيش مع عائلته معظم أشهر السنة، وحينما كان يتصفّح موقع (eBay) وجد مستودعاً مليئاً بأجهزة حاسوب مهملة من نوع آي أوبينير، وهي أجهزة صغيرة وزهيدة الثمن، وجميع قطعها موجودة في الشاشة. بدايةً، جلب جيري مئتي جهاز بسعر عشرين دولاراً للواحد، ثمّ وصلها بأنظمة اللمس، ثمّ وضعها على مكاتب بعجلات، وزوَّدها بالطاقة بوساطة بطاريات سيارات. ومع مرور الوقت، تمكَّن جيري من تصميم برنامج يتيح لموظفي المستشفى، ولاسيّما غير المدرَّبين منهم، تمرير شيفرة عمودية، وتدوين أسماء المرضى في أقل من دقيقة. إضافة إلى ذلك، كان سجل المرضى الطبي يظهر على الشاشة إلى جانب طريقة صرف وصفات الدواء. وقد تميَّز هذا النظام بطريقته اللافتة فيما يخصّ إعطاء مضادات الفيروسات لمرضى الإيدز؛ إذ كانت التقنية المستخدمة في ذلك النظام والكفاية التي منحها أكثر تطوراً من تلك التي تستخدمها المستشفيات في أمريكا بصورة أو بأُخرى.

كان جيري في بيتسبيرغ وقت زيارتنا. لذا، قام مايك وسويابي وبيتر تشيرومبو؛ فني المعدات في المنظّمة، باصطحابنا في جولة. كان لمايك طاحونة هوائية صغيرة بناها بعد مقالة في مجلة **ميك ماغازين** (أصبحت نشرتي المفضّلة حاليّاً)، وكان يفكّر في استخدامها لتزويد عيادة ريفية بالطاقة. كان مولِّدها محرّك طاحونة يُدار بالدوس، وهو شيء لم يسبق لي رؤيته من قبل. وكان مايك قد ثبَّت مثقاباً في أحد طرفي المحرك ليجعله يدور، ثمّ أخذ سلكين ووصلهما بمقياس فولتية، وهو أداة مدهشة. ولمّا قست طاقة المحرّك باستخدام مقياس الفولتية وجدتها ثمانية وأربعين فولتاً؛ أي أقوى من مولِّدي بأربع مرّات.

سألني مايك: **ما رأيك؟**

أجبت: **هذا رائع.**

بعدها أهداني كليهما. بدا أنّ حظّي آخذ بالتحسُّن شيئاً فشيئاً.

تعلّمت من مايك وسويابي أيضاً شيئاً عن البطارية ذات الدورة العميقة التي توفِّر تياراً أكثر اتزاناً ووقتاً أطول، مقارنة ببطارية السيارة التي كنت أستعملها. وقد رغبت في تجربة إحداها. لذا، ذهبت أنا ومايك إلى مكاتب سولير، وهم وكلاء معدات الطاقة الشمسية المحليين، فاشترينا بطاريتين، وأربعة مصابيح ذات صمامات ثنائية باعثة للضوء، ولمبات فلورية اقتصادية، ومواد أُخرى؛ لإعادة تمديد التوصيلات الكهربائية كلّها في بيتنا.

جاء العمّال إلى قريتي في الأسبوع اللاحق، وتمكّنّا في ثلاثة أيام من تغيير الأسلاك القديمة، وحفر خنادق لدفن الأكبال، وتركيب مصابيح ومفاتيح جيدة (أبقيت المفاتيح التي صنعتها من نعالي القديمة منظراً للذكرى). لقد تبدَّد القلق والخوف من اشتعال النار مجدَّداً؛ بفضل الأسلاك، وأنابيب الحماية البلاستيكية، والخطوط المدفونة الجديدة. ركّبت أيضاً مانع صواعق على قمّة الطاحونة؛ تحسّباً واحترازاً. وما إن انتهينا، حتى أصبحت كلّ غرفة مضاءة بلمبة، إضافة إلى لمبتين في الخارج. ولما كانت جدران بيتنا الطينية القاتمة تمتص معظم الضوء، فقد أعدنا طلاءها باللون الأبيض؛ لنحصل على انعكاس أفضل. فضلاً على أنني ركَّبْتُ ألواحاً شمسيةً على سطح غرفتي؛ لزيادة إنتاج الطاقة. ولاحقاً، سيحصل كلّ بيت في قريتي على مجموعة من تلك الألواح الشمسية، إضافة إلى بطارية لتخزين الطاقة. لقد أصبح المجمع السكني يتوهّج ليلاً بعد أن أُضيء كلّ بيت فيه.

بعد تقديمي مجموعة من الطلبات لعدد من المدارس المتوسطة الخاصة في المنطقة، ورفضها بسبب سنّي المتقدِّمة، قُبِلت أخيراً في أكاديمية **بايبل كوليدج كريستشن الإفريقية** في ليلونغوي التي تديرها الإرسالية المشيخية. كان مديرها تشاك ويلسون أمريكيّاً من كاليفورنيا، وكانت معلمتي لوريلي ماكلين من كندا.

وافقت السيدة ماكلين والسيد ويلسون على المخاطرة وقبولي في المدرسة، مع أنّني كنت متأخّراً عن زملائي طلاب المرحلة الثانوية. كان لدى السيدة ماكلين شرط واحد؛ هو عدم العودة إلى حياة الفقر عند مغادرتي المدرسة كلّ يوم. كان عليَّ إيجاد مكان جيد في ليلونغوي.

عرض عليَّ جيري غرفة في بيته؛ بسبب عدم وجود أيّ أقارب لي في المدينة حينها. حصلت هناك على غرفة مخصوصة بي، ومكتب للمذاكرة. وكانت نانسي (مدبّرة المنزل) تعدّ لي كثيراً من السيما والمشهيات؛ لكيلا أحنّ إلى البيت. كان كلّ شيء يجري على نحوٍ رائع. ولكن، بسبب وجودنا في المدينة، فقد عانينا انقطاع الكهرباء مرّات عدّة أسبوعيّاً. ولم يسعني سوى التفكير في الحال الذي صرت إليه؛ فبعد كلّ تلك المعاناة التي تكبّدتها لتزويد قريتي بالكهرباء، ها أنذا أجلس بالعتمة على الرغم من النجاح الذي حقّقته. وقد أخبرني جيري حينئذٍ أنّه يتعيّن عليَّ إحضار طاحونة هوائية معي أينما حللت.

أصبح جيري صديقاً ومعلّماً رائعاً لي مع مرور الوقت. وكان قد عمل طياراً استعراضيّاً إبّان وجوده في إنجلترا، ثمّ طياراً عموديّاً في أثناء وجوده بكندا. لذا، كان لديَّ دائماً كثير من الأسئلة عن المحرّكات وما شابه. وقد شرح لي جيري مرّات عدّة – بعد العشاء – عن كيفية عمل الطائرات العمودية، وكيف أنّ الشفرات الدوّارات تركب الرياح لحمل الآلات الثقيلة، وكيف أنّ المروحة الخلفية تمنع الطائرة من الدوران حول نفسها. إضافة إلى أنه ساعدني على تحسين لغتي الإنجليزية، وبخاصة نطق حرف (R) بصورة صحيحة، وهو شيء يربكنا نحن معشر ناطقي لغة تشيتشيوا؛ إذ عادة ما ننطقه كحرف (L). كنّا نؤدي تلك التمارين أمام مرآة الحمام عادة حتى يتسنّى لجيري التوضيح:

– حسناً يا ويليام، راقِب لساني، وقل: (library).

– (Liblaly)

– «(L–i–b–R–a–R–y)»

– «(L–i–b–L–a–L–y)»

– ستنجح في نطقها.

كانت المناهج في الأكاديمية أمريكية، وتُدرَّس عن بُعد. لذا، كنّا نتعلَّم باستخدام الحواسيب، وشبكة الإنترنت. لم أكن أعرف شيئاً عن الإنترنت قبل شهرين، وها أنذا أستخدمه يوميّاً للتحدث إلى مدرسيَّ الموجودين في ولاية كولورادو. كان عدد طلاب المرحلة الثانوية قليلاً؛ إذ بلغ اثني عشر طالباً فقط: طالبين من أمريكا، وواحد من كندا وآخر من كوريا، وصبياً وفتاة من أثيوبيا. كان هنالك أيضاً كثير من الطلبة المالاويين في المرحلة الابتدائية، لكنّني كنت المالاوي الوحيد في المرحلة الثانوية (بلغت الرسوم خمسة آلاف دولار للسنة، وهو مبلغ لا يستطيع معظم المالاويين تحمُّله). كنت في البداية أخجل من نفسي لضعف لغتي الإنجليزية، ولاسيّما بعد أن سمعت أطفالاً في سنّ الخامسة يقولون جملاً بصورة أفضل منّي. أصابني بعض الإحباط في الأيام الأولى هناك. لكنّ مدرِّسي الخاص، وهو مالاوي يُدعى بليسينغز تشيكاكولا، قدَّم لي تشجيعاً منقطع النظير.

كان السيد بليسينغز ينحدر أيضاً من قرية فقيرة قرب دوا، وكان يعمل هناك مدرِّساً للمرحلة الابتدائية، ويعيل زوجة وأربعة أطفال براتب ضئيل. وكانت قريته قد عانت كثيراً في أثناء المجاعة، ومات أناس كثيرون، من بينهم والده وبعض طلابه. لذا، فقد سعى إلى توفير لقمة العيش لعائلته وتحسين وضعها؛ بأن ركب حافلة صغيرة، وتوجَّه إلى ليلونغوي للانخراط في الجيش المالاوي. ولكن، ما إن أوشك أن يدخل البوابات حتى تلقّى اتصالاً من ابن عمه يفيد بقبول طلب البعثة الذي قدَّمه للأكاديمية قبل أشهر عدّة. لاحقاً، وفي سنّ الثلاثين، وقف بليسينغز بفخر أمام زوجته وأطفاله الأربعة إبّان صعوده منصة التخريج. بعد ذلك، قامت المدرسة بانتدابه مدرِّساً.

صورة أظهر فيها برفقة والديّ أمام الطاحونة الهوائية عام 2007م، بعد العودة من مؤتمر تي إي دي مباشرة.

قال لي: لا تدفعنّك صعوبة الأمر إلى القنوط والاستسلام. انظر إلى ما فعلته أنا. فقد دخلت الكلية وأنا في سنّ الثلاثين. إذا بذلت أقصى ما لديك ستنجح في تحقيق كلّ ما تصبو إليه.

وفي واقع الأمر، فقد مكّنني المال الذي حصلت عليه من المتبرِّعين – في نهاية المطاف – من مساعدة عائلتي بطرائق عدّة؛ إذ استبدلت أغطية حديدية بالقش في بيوت أقاربي بالقرية، وجلبت فرشاً حتى لا تنام شقيقاتي على الحصر العشبية فوق الأرضية الترابية، وأحضرت دلاء ماء مغطّاة لحماية مياه الشرب من الحشرات. اشتريت أيضاً لحفاً (بطانيات) أفضل لدفئنا في ليالي الشتاء، وأدوية ولقاحات لعلاج الملاريا، وشباكاً (ناموسية) تقي من البعوض لاستخدامها في موسم المطر، ورتَّبت لكي أرسل أفراد عائلتي كافة إلى الطبيب الاختصاصي وطبيب الأسنان (كان لدي تجويف واحد فقط، مع أنّني لم أراجع طبيب أسنان من قبل!).

أصبحت قادراً أخيراً على سداد دين غيلبرت بعد كلّ المساعدات التي قدَّمها لي. وكان غيلبرت قد اضطر إلى ترك المدرسة بعد وفاة والده؛ لأنّ عائلته لم تكن تملك المال الكافي

لذلك. لذا، فقد مكّنه تبرُّعي من العودة إلى المدرسة، وكذا كان الحال بالنسبة إلى شقيقاتي وجيفري وأقارب آخرين تركوا المدرسة في أثناء المجاعة؛ حتى إنّني أعدت أطفال الجيران إلى المدرسة.

بعد سنوات من الحلم بالأمر، تمكّنت أخيراً من حفر حفرة عميقة وفَّرت ماء شرب نظيفاً لعائلتي. وقد قالت والدتي: إنّ ذلك وفَّر عليها ساعتين يوميّاً لحمل الماء من البئر العمومية. وكنت قد استخدمت مضخّة تعمل بالطاقة الشمسية لملء خزاني ماء، سَعة كلّ منهما خمسة آلاف ليتر، ووصلت بهما أنابيب تصل إلى حقول والدي. بعدئذٍ، ركّبت أنابيب ريّ سهلة التجميع، كنت قد اشتريتها من شركة أمريكية تُدعى **تشابين ليفينغ ووترز**، الأمر الذي أتاح لوالدي زراعة محصول ثانٍ من الذرة أخيراً. وبذا، لن يكون مستودع الحبوب فارغاً من الآن فصاعداً. أمّا الصنبور الواصل من الحفرة (نظام الريّ الذاتي الوحيد في المنطقة) فكان تحت إمرة نساء القرية وبالمجان. كان العشرات منهنّ يأتين يوميّاً إلى بيتي لملء دلائهنّ بمياه نظيفة باردة من دون حاجة إلى الضخّ مراراً وتكراراً.

عملت في أثناء العطل المدرسية على بناء طاحونة هوائية أكبر لضخّ الماء. وتوجد تلك الطاحونة الآن فوق البئر الضحلة الموجودة في البيت، وهي تروي الحديقة حيث تزرع والدتي السبانخ، والجزر، والطماطم، والبطاطا الإيرلندية، فتأكل عائلتي منها، وتبيع الفائض في السوق. لقد تحقَّق الحلم أخيراً.

لم يخطر على بال عائلتي يوماً أنّ الطاحونة الهوائية الصغيرة التي بنيتها في أثناء المجاعة ستغيِّر حياتهم بمختلف أشكالها. لقد أخذوا ينظرون إلى ذلك التغيير بوصفه هِبة من السماء. وكان والداي يُطلِقان عليَّ ألقاباً جديدةً كلّما عدت من المدرسة في عطلة نهاية الأسبوع. وقد أطلقا عليّ مرّةً لقب نوح؛ النبي المذكور في الكتاب المقدّس، الذي بنى السفينة لينقذ أهله من الفيضان.

قالت والدتي: **كان الجميع يضحك من نوح. ولكن، انظر ماذا حدث. لقد أنقذ أهله من الهلاك.**

قال والدي: **لقد وضعتنا على الخريطة. والآن، أصبح العالَم كلّه يعلم بوجودنا.**

في شهر كانون الأول من عام 2007م، سافرْتُ إلى الولايات المتحدة لأزور توم في عطلة عيد الميلاد، ومشاهدة الطواحين الهوائية في جنوب كاليفورنيا المذكورة في كتابي. وبعد معاناة في استصدار إذن دخول (تأشيرة) (يواجِه الأفارقة صعوبة عند السفر إلى أوروبا وأمريكا)، حطّت طائرتي في مدينة نيويورك في ذروة فصل الشتاء، ولم أكن أرتدي سوى كنزة صوفية. ولمّا بحثت عن حقائبي لم أجدها، فقالت لي الموظفة في مكتب شركة الطيران: **إنّ حقائبك مفقودة، سنتصل بك حالما نجدها.**

لم أعرف كيف سيفعلون ذلك؛ فلم يكن لديّ هاتف.

عندما ركبت سيارة الأجرة مغادراً المطار، تمكّنت أخيراً من رؤية البنية التحتية الأمريكية الرائعة التي قرأت عنها كثيراً. وقد سلكت السيارة طرقاً ملساء تحوي خمسة مسارب في كلّ اتجاه، وجازت جسوراً لا ماء تحتها، وتلا ذلك السير على مزيد من الطرق والجسور. وفي هذه الأثناء، بدت المباني الشاهقة – عن بُعْد – قوية جدّاً، ويلتصق بعضها ببعض. وكان صعباً عليَّ تخيُّلُ أنّ رجالاً بنوا تلك المباني، وأنّ بإمكان أيّ أحد السير بينها.

وقد صادف أنّ توم كان يعيش في أحد تلك المباني الواقعة أقصى جنوب مانهاتن. وكانت شقته في الطابق السادس والثلاثين، فسألت نفسي عن كيفية الصعود إلى هناك. عندئذٍ، أشار أحدهم إلى المصعد الذي رفعني إلى هناك في عشر ثوان بالضغط على زرّ فقط. نظرت إلى أعلى، فوجدت مرآة في السقف. كان هنالك كثير من الأسئلة التي تبادرت إلى ذهني حتى اللحظة.

دخلت الشقة، فوجدتها محاطة بالنوافذ من الأرضية حتى السقف، وبدا أنّه بالإمكان المشي عبر الحافة. كان أكثر الأمكنة التي صعدتها ارتفاعاً قبل ذلك اليوم، هو قمّة طاحونتي الهوائية. وقد تطلّب منّي التأقلم والتكيّف بعض الوقت، وجافاني النوم تلك الليلة على الأريكة.

كان على توم أن يعمل يومين في ذلك الأسبوع، فتطوّع بعض أصدقائه وصديقاته لاصطحابي في جولات حول المدينة. وقد عملت إحداهنّ على تحضير كومة الملابس الشتوية لتكون موجودة لحظة وصولي من المطار – إلى جانب معطف، وقفافيز، ووشاح، وقبّعة – كي لا أتجمّد. كنت شاكراً جدّاً، ولا سيّما أنّ كلّ ما كنت أملكه قد ضاع في مكان ما في إفريقية.

وفي اليوم اللاحق، اصطحبتني صديقة أُخرى – وهي راقصة مشهورة تُدعى مونيكا جيليت – في جولة سياحية بمنهاتن. فنزلنا إلى مترو الأنفاق، ورأيت الناس يدخلون البوابات بمجرّد إمرار بطاقة. يا لها من فكرة رائعة! ثمّ تنقّلت عبر الأنفاق التي تعلوها بنايات شاهقة، ودهشت لأنّها لم تسقط على رؤوسنا. وقد أصابتني الأرصفة في نيويورك بالإرهاق؛ إذ كان يمشي عليها مئات الأشخاص في الاتجاهات كلّها. ومن أبرز الأمور التي لاحظتها في نيويورك، انشغال الناس هناك. فهُمْ لا يملكون الوقت لفعل أيّ شيء، ولا حتى للجلوس واحتساء القهوة، بل يشربونها في أكواب ورقية في أثناء المشي، وإرسال الرسائل الإلكترونية.

بعد ذلك، وقفت عند موقع بناء، وشاهدت الرافعات الضخمة وهي تحمل قطعاً فولاذية في السماء، فسألت نفسي: **كيف يستطيع الأمريكيون بناء ناطحة سحاب كتلك في عام، في حين لم تتمكّن مالاوي على مدار أربعة عقود بعد الاستقلال من إيصال أنابيب تنقل الماء إلى القرى؟**. يمكننا إرسال طائرات مسحورة في السماء، وشاحنات أشباح على الطرق، لكنّنا نقف مكتوفي الأيدي أمام انقطاع التيار الكهربائي عن بيوتنا. كان يبدو أنّنا نكافح دائماً للحاق بركب الحضارة. ولكن، كنّا نعيش ونموت على حال أسلافنا، على الرغم من وجود كثير من الأشخاص الأذكياء والمجتهدين.

كانت السيدة اللطيفة التي تبرَّعت لي بالثياب الشتوية تُدعى أندريا بارثيلو، وكانت تدير، برفقة زوجها بيل ريتشي، شركة (**ثينك فان**)، التي تُعنى بصنع ألعاب وأحاجٍ تعليمية مسلّية. كنت قد قابلتها في المؤتمر برفقة ابنها سام الذي كان بمثل سنّي. وفي اليوم اللاحق، اصطحبني الاثنان في جولة أخرى بجزيرة مانهاتن (هذه المرّة بالطائرة العمودية!)، وقد سمح لي الطيار بوضع السمّاعات على أذنيَّ، والجلوس في المقدّمة عند لوحات التحكّم والأقراص، والمفاتيح، والشاشات. حلَّقت بنا فقاعتنا الزجاجية في الأعالي فوق المدينة، وتمثال الحرية، وبجانب مبنى إمباير ستيت، والقوارب السريعة التي تُبحِر في النهر مُخلِّفة وراءها أثراً أبيض طويلاً. وقد ارتسمت على مُحَيّاي ابتسامة عريضة طوال الوقت.

وفي وقت لاحق من الأسبوع، ذهبت أنا وتوم بالسيارة صوب كونيتيكت لتناول طعام العشاء برفقة جيه ووكر وزوجته إيلين، اللذين كنت قد التقيت بهما في المؤتمر أيضاً. يُذكَر

أنّ بيت جيه يحوي مكتبة قيّمة جاوزت شهرتها عنان السماء، وهي تشبه مُتحفاً للاختراعات العظيمة. كانت المكتبة تزخر بكثير من الكتب التي أُلِّفت وطُبِعت قبل مئات السنين، وتناولت الموضوعات المعروفة آنذاك جميعها، فعرفت أنّ هناك أناساً في أرجاء أُخرى من العالَم واجهوا صِعاباً جمّة لتوسيع مداركهم. وقد لاحظت أنّ بعض الكتب كانت مرصَّعة بالجواهر. لكنّ المكتبة كانت تضم ما هو أكثر من الكتب؛ إذ كان هنالك قمر صناعي سوفييتي من طراز سبوتنيك يتدلّى من السقف، وكان يجثم على أحد الرفوف بعض من أوائل أجهزة الحاسوب والمذياع والمعالجات، وحتى آلة شيفرات نازية من نوع إينيغما. لكنّ قطعتي المفضّلة كانت نسخة مقلَّدة لأول لمبة صنعها توماس أديسون، فتأمّلتها من مختلف الزوايا. كنت قد واجهت صعوبة كبيرة في إنارة لمبة بوساطة طاحونة هوائية، فيا إلهي، هذا الرجل هو مَنِ اخترع اللمبة أصلاً!

أعادني شريط الذكريات إلى رحلتي الأولى التي بدأت في مكتبة صغيرة بالقرية، كانت رفوف كتبها الثلاثة بمنزلة الكون الفسيح بالنسبة إليَّ. ولكن، حين وقفت هناك، أدركت الحجم الحقيقي للكون، وضآلة كَمِّ المعلومات التي أعرفها عنه. كان هناك الكثير لأراه وأفعله. وما هي لحظات حتى أُصبِت بدوار خفيف.

سافرنا بالطائرة إلى كاليفورنيا بعد بضعة أيام؛ لقضاء عيد الميلاد في لوس آنجلوس برفقة شقيقة توم وعائلته. ثمّ ركبنا السيارة نحو رصيف سانتا مونيكا البحري على المحيط الهادئ، وأخذنا نراقب راكبي الأمواج. ثمّ تجاذبت أطراف الحديث مع رجل ينفث النار من فمه، ويمشي على الزجاج المكسور فوق الممشى الخشبي عند شاطئ فينيس.

وفي وقت لاحق من الأسبوع، زرنا متنزّه الحيوانات البرية في سان دييغو، فشاهدت كثير من الحيوانات، مثل: الزرافة، وفرس النهر، والفيل، ووحيد القرن، والقرود، وغيرها. الغريب أنّ متنزّه كاسونغو الوطني يبعد عن قريتي مسير نصف ساعة إلى الشرق، وعلى بُعْد ساعتين غرباً هنالك محمية نكوتاكوتا للحياة البرية، ويوجد في كلا المكانين حيوانات مثل هذه تتجوّل وتلعب، لكنّني لم أزر أيّاً منهما من قبل. وها أنذا أراها في الولايات المتحدة على بُعْد عشرة آلاف ميل؛ يا لها من مفارقة عجيبة جعلتني أُصاب بنوبة من الضحك المشوب بشيء من الحيرة والدهشة!

أخذتنا السيارة باكراً في صباح اليوم اللاحق عبر الصحراء باتجاه لاس فيغاس، لحضور عرض كونسيومر إيليكترونكس الذي كان يمثّل متاهة لامتناهية من الألعاب والأدوات الرائعة، التي تميَّز كثير منها بالعمل وَفق تقنية الطاقة المنخفضة القدرة، مثل: المصابيح الثنائية الصمامات الباعثة للضوء التي تعمل بالطاقة الشمسية، وسمّاعات البلوتوث التي توضَع على الأذن وتشحن الهاتف عن طريق الشمس، وأجهزة المذياع من نوع فري بلاي التي تعمل بذراع لا تحتاج إلى بطاريات. بتنا تلك الليلة في فندق تريجر آيلاند حيث كانت تقدَّم جوائز كبيرة؛ كالسيارات وغيرها طوال الليل، في حين تقدِّم فتيات كاسيات عاريات الصودا مجاناً.

وقفت هناك في الملهى (الكازينو) محاطاً بالأضواء الوامضة، في حين انهالت نوافير من المال من آلات عدّة وسط أصوات صفارات الإنذار، فكان عليَّ تذكير نفسي بضرورة التنفس.

سألني توم صارخاً (كي أسمعه): **هل تقضي وقتاً ممتعاً؟**

قلت وقد ارتسمت على مُحَيّاي ابتسامة عريضة: **نعم، هذا رائع!.**

ولكن بصدق، كانت الإثارة الكبيرة التي عشتها في الأسبوع المنصرم أكبر من أن يتحمّلها دماغي. لذا، حوَّلت تفكيري صوب المكان الوحيد الذي أعرفه. فوقفت هناك عند قاعدة آلتي، ثمّ صعدت درجات البرج، واحدة تلو الأخرى ببطء، وشعرت بالخشب الغضّ يصر تحت قدمي الحافيتين، ثمّ أخذت أستمتع بجمال المنظر الآسر الأخّاذ؛ إذ كان الجو لطيفاً دافئاً تحت أشعة الشمس. فنظرت من علٍ إلى البلد الذي أُحِبّ، عبر الحقول الخُضْر الشاسعة، والمنحدرات الوعرة على المرتفعات التي أرسلت نسيماً مألوفاً على طول الوادي، ليضرب الشفرات من خلفي. استلقيت على السرير لاحقاً في تلك الليلة، وجعلت أحلام اليقظة تهدهدني للنوم، فكان ضجيج الآلة الأبيض مثل أغنية تغنيها والدتي. خلدت إلى النوم أحلم بمالاوي، وكلّ الأشياء التي تتحقّق حين يُحرِّك قلب المرء أحلامه.

كثيراً ما كنت أسرح بخيالي مُستشرِفاً صورة وطني في أثناء وجودي بأمريكا. كانت هي نفسها كلّ مرّة، وكلّما ذهبت إلى هناك جلبت لي شعوراً بالدفء والسعادة.

ولكـن، بعد وقـت قصير من تلك الليلـة في فيجاس، وجـدت نفسي أُحـدِّق بتضاريس مشابهة لتلك التي راودتني في أحلامي عن وطني (سهول خُضْر، وجبال في الأفق، بستار من سماء زرقاء لامعة)، خلا أنّني لم أكن في مالاوي، بل في بالم سبرينجز بكاليفورنيا. في ذلك الفـراغ الفاصل بيني وبيـن التلال، ظهرت فجأة أميال مُتخمَة بأكثـر من ستة آلاف طاحونة هوائية تبرز من الأرض كغابة ضخمة من الأشجار الآلية.

بانـت الأبعاد الحقيقيـة للآلات حالما توقّفنـا في إحدى مَزارع الريـاح. شعرت هناك أنّني فقدت إحساسي بالمقاييس. فقد كانت الجذوع البيضاء الضخمة في التوربينات شبيهةً بتلـك التـي رأيتها في أفـلام الرسوم المتحركة بالتلفـاز، وعريضةً جدّاً، لدرجـة أنّها كانت قـادرة على ابتلاع بيت عائلتـي كله. وما إن ترجَّلْنا من السيارة حتـى رحَّب بنا صوت الرياح المندفعـة. كان الصوت عميقـاً ومُستحوِذاً على المكان لدرجة أنّه أخذ يسحب أنفاسي. ولمّا نظـرت إلـى الأعلى شاهدت الشفرات التي يبلغ طولها مئة قـدم، وهي تدور ببطء كالألعاب. حينئذٍ، شعرت أنّني أحلم.

كانـت تلك الطواحين الهوائية تختلف عن الطاحونة التي بنيتها؛ إذ ارتفعت الآلات إلى نحـو مئتي قدم في الهواء، ببـاع أطول من جناح الطائرة التي أَقلَّتْـه إلى أمريكا. قام كريس كوبلانـد؛ كبير المهندسين فـي مزرعة ويند تيك للرياح، باصطحابنـا داخل البطن المعتم لإحدى الآلات. كان هنالك شاشة حاسوب على أحد الجدران تُظهِر مختلف المعلومات، بدءاً بكمية الفولتيات المنتجَة، وانتهاءً بسرعة الرياح والشفرات. وإذا حدث أن هبَّت الرياح بشدّة، فـإنّ الحواسيب تُطفِئ الدوّارات مباشرة، خلافاً لطاحونتي الهوائية التي كانت تنقصم عند هبوب رياح قوية؛ مُسبِّبة قذف الشفرات في الهواء كسكاكين طائرة.

كان كلّ توربيـن يولِّـد اثني ألفاً وخمس مئة فولت، في حين تولِّد مزرعة الرياح ست مئة ميجـا واط، تنقَـل إلى محطة فرعية بكبل تحت الأرض، ومـن ثَمّ إلى آلاف البيوت في جنوب كاليفورنيـا. كانـت ست مئة ميجا واط كافيـة لتزويد مالاوي كلها بالطاقـة وأكثر (مقارنة بـ بمئتين وأربع وعشرين ميجا واط تنتِجها شركة التوليد الوطنية في مالاوي).

راودنـي شعور لا يوصَف لدى مشاهدة هذه الآلات التي تخيّلتها منذ أمد طويل، وها هي الآن تدور أمامي بفعل الرياح. لقد أتمَّت دورة كاملة؛ فصور الكتاب الذي وجدته في المكتبة منحتني الفكرة، في حين منحني الجوع والظلام الإلهام، وبدأت بنفسي تلك الرحلة الطويلة والمشائقة. وقفت هناك، وأخذت أُفكِّر في خطوتي المقبلة. قلت لنفسي: «**ماذا سأفعل الآن؟ ما الذي يخفيه لي المستقبل بعد كلّ ما حقَّقته؟**»، ثـمّ نظرت على امتداد الآلات، فرأيت كيف بدت الجبال تترنّح كأنّها تتشقلب وتتراقص على وقع دوران الشفرات.

وحينمـا كنت أنظر إليهـا، أحسست أنّها تبوح لي بشيء من قبيل: **يتعيّن عليك التريُّث في اتخاذ القرار**. كان بوسعي العودة إلى إفريقية، وإكمـال الدراسة، واستعادة الحياة التي حُرِمـت منهـا مدّة طويلة. ومَنْ يـدري ماذا سيحدث بعـد ذلك؟ ربّما سأدرس تلك الآلات، وأتعلّـم كيفية بنائها، ثمّ أزرع غابتي الخاصة قربها، إلى جانب حقول مالاوي الخُضَر. وربّما أُعلِـم الآخرين كيفية بناء مزيد من الطواحيـن الهوائية البسيطة، كتلك الموجودة في بيتي؛ لكي يحصلوا على الإضاءة والمياه بأنفسهم من دون حاجة إلى الاعتماد على الحكومة. وربّما أفعل الأمرين كليهما. ولكن، بغضّ النظر عن قراري، فسوف أُطبِّق الدرس الذي تعلّمته؛ إذا أردت تحقيق النجاح فكلّ ما يتعيّن عليك فعله هو المحاولة.